قراءة في كتاب " السلام والنزاع والعنف: علم نفس السلام في القرن 21"

عرض: د. عبير عبد الرحمن خليل عبد الرحمن
أستاذ مشارك – جامعة الخرطوم – كلية الآداب – قسم علم النفس

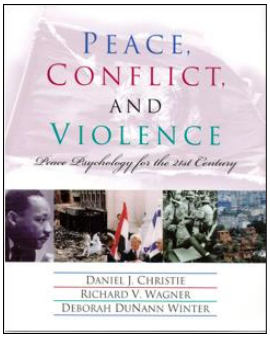

سنة النشر:2001م
المؤلفون: دانييل كريستي وريتشارد واغنر وديبورا وينتر
Daniel J. J. Christie, Wagner, Richard V. Wagner, (Deborah DuNann Winter)
عدد الصفحات: 426
اللغة: الإنجليزية
دار النشر: برينتس هول Prentice Hall.- نيوجيرسي

يحتاج العالم الآن إلى التخطيط بدقة للسلام أكثر من أي وقت مضى، إذ لا تكاد رقعة في الأرض تخلو من العنف والصراع، وانعدام الأمن والاستقرار. ويحتاج التخطيط للسلام إلى فهم شامل متسع وعميق لقضايا العنف والصراع ومآلاتها، ربما يجد المعنيون بهذا الأمر مبتغاهم في هذا الكتاب الشامل. تقوم أطروحة الكتاب على أربعة أركان تكون تصوراً متكاملاً حول تحقيق السلام في القرن الحادي والعشرين، هذه الأركان قائمة في أقسام الكتاب الأربعة وهي: العنف المباشر، والعنف غير المباشر أو العنف البنيوي، وصناعة السلام، وبناء السلام.

في القسم الخاص بالعنف المباشر يقدم المؤلفون صوراً متعددةً للعنف، تبدأ من العنف داخل الأسر وبالتحديد عنف الأزواج الذي قد يصل حد القتل، مروراً بالعنف ضد المجموعات العرقية أو الدينية، أو العنف ضد الأقليات وما يسمى بجرائم الكراهية، وعنف الطوائف، وصولاً إلى جرائم العنف الكبرى مثل جرائم الإبادة الجماعية، والتطهير العرقي والحروب الكبرى

وقد اكتمل الحديث عن العنف المباشر في سبعة فصول. ثم يفصل المؤلفون حول العنف غير المباشر وقد سماه محررو الكتاب " العنف البنيوي". ويتخذ أشكالاً عدة تقع في سبعة فصول أيضاً، ويبدأ الأول منها بالحديث عن الظلم الاجتماعي الذي يمارس فيه التمييز العرقي والطبقي وغيرها من أنواع التمييز التي تخلق نوعاً من الغبن والمرارات، وتهيئ للعنف المباشر. ويدلف الكتاب هنا إلى تأثير الظلم الاجتماعي، وعدم التوزيع العادل للموارد، والإجحاف بالحقوق على الأطفال، وكيف يمكن أن يحرمهم حق النماء، والتطور

والبناء النفسي السليم. ثم يتجه الكتاب للتركيز على التمييز ضد النوع الذي تعاني منه الإناث في مختلف المناطق حول العالم، حيث يمكن أن يحرمهن حق الغذاء المكفول في غالب الأحيان لرصفائهم الذكور. ثم ينتقل الكتاب في ذات المحور إلى استعراض صورٍ أخرى من العنف البنيوي، مثل ما يحدث من هيمنة اجتماعية (للعسكرية) حين تستقطب الموارد الاقتصادية، وتستأثر بالثروات وينتج عن ذلك مستويات من الحرمان داخل المجتمع الواحد. ثم يستعرض الكتاب ما تحتويه العولمة من نشر للثقافة الغربية، وهيمنة على حساب الثقافات الأخرى؛ لينتج عن ذلك نوع من العنف البنيوي من خلال محو الثقافات المحلية. ويختتم قسم العنف البنيوي بالحديث عن التعدي على حقوق الإنسان، من حقوق سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، باعتبارها عوامل تسهم بقوة في تكريس العنف البنيوي.

بعد أن رسم الكتاب صورة كبيرة مفصلة عن العنف في القسمين الأولين، يأتي فيه الحديث عن كيفية صناعة السلام وبنائه في القسمين الثالث والرابع في ترتيب منطقي، حيث يأتي أولاً الحديث عن صناعة السلام باعتبارها عملية لازمة لمواجهة العنف المباشر، إذ إن صناعة السلام تتضمن الطرق التي تتبع في إيقاف الحروب والنزاعات، وتهدئة الصراعات ومعالجة ما خلفته الحروب والنزاعات من خسارات مادية واجتماعية، مثل: مفاوضات حل النزاعات، وبرامج إعادة البناء في مجتمعات ما بعد الحروب، وإزالة آثار الصدمات، وآليات المصالحة والتصافي.

ثم ينتقل الكتاب في القسم الرابع والأخير إلى الحديث عن التحول من بنيات العنف وتبعاته إلى تكوين بنيات السلام، وكيفية غرسه وإشاعته، وتنشئة الأفراد عليه منذ نعومة أظفارهم. ويحتوي القسم فصلاً حول سايكولوجيا الليبرالية وحقوق الأفراد، وفصلين حول الزعيم الهندي المهاتما غاندي بوصفه رمزاً من رموز بناء السلام. وهنالك ثلاثة فصول حول أدوار بعض الفئات الاجتماعية في بناء السلام، مثل دور الأطفال ودور النساء، حيث تم تناول أفكار الأطفال حول السلام، وكذلك تمكينهم من خلال رعاية حقوقهم وإيفاء احتياجاتهم النمائية. وعن دور النساء، فقد تم التركيز على دور المنظمات والحركات النسوية في تحقيق بناء السلام، واختتم القسم بالحديث عن دور علماء النفس في تحقيق التغيير من خلال بناء (ثقافة) السلام.

يستند الكتاب على تحليل المشاهد والأحداث والوقائع التاريخية في تحديد الأفكار الرئيسية، والوصول إلى الخلاصات بدلا من الاستشهاد بما جرى في ساحة البحوث العلمية. ونسبة إلى أن طبيعة مدخل الكتاب نفسية اجتماعية، يتناول الكتاب تفاعلات الفرد في السياقات الاجتماعية المختلفة بأسلوب يمكن وصفه بأنه متوازن، إذ نجد أن المؤلف يبدأ الفصل بتجربة فردية تقوم عليها مكونات الفصل. ثم يدلف الكاتب من خلالها إلى مناقشة القضية الاجتماعية والسياسية المتصلة بالعنف أو السلام، ففي الفصل الأول مثلاً الذي يتناول العنف بين الأزواج، بدأت ناعومي ابراهامس بسرد إحصائيات وصفتها بأنها مثيرة للرعب،

حيث تشير إلى ارتفاع نسبة العنف بين الأزواج إلى قرابة الثلث في المجتمع الأمريكي، ثم تستعرض الكاتبة حالات للعنف بين الأزواج انتهى بعضها بقتل أحد الزوجين للآخر؛ لتتحدث من خلالها عن تأثير الثقافة والدين والأسرة على العنف بين الازواج.

وفي الفصل الخاص بالزعيم الهندي المهاتما غاندي - الذي يتناول دوره في بناء السلام محليا وعالميا- بدأ الفصل بمشهد عاشه غاندي مثل لحظة فارقة في حياته، ورسم خطوط مسيرة نضاله، والعبور بشعبه إلى بر الحرية والسلام. المشهد مؤثر للغاية، وقد حدث في الفترة التي عاش فيها غاندي في دولة جنوب إفريقيا حيث طرد من القطار لرفضه مغادرة مقعده في الدرجة الأولى وقد كان خاصاً بالبيض، وممنوع عن الملونين. ومنذ ذلك الحين جدَّ المهاتما غاندي في مقاومة التمييز الاجتماعي على أساس العرق واللون، وقاد حركة الحقوق المدنية، ومقاومة الاحتلال البريطاني إلى أن استقلت الهند. كان ذلك المشهد بداية لسرد المشاهد الاجتماعية وتحليلها تلك التي تحكي عن تأثير القائد في الجماعات، والمجتمع ومن خلالها استعرض الكاتب أفكار المهاتما غاندي حول بناء السلام بالوسائل السلمية.

بذات الأسلوب بدأ الفصل السابع والعشرون الذي يتناول أفكار السلام في أذهان النشء من أطفال ومراهقين، حيث بدأ الفصل بحديث طفلة في الثالثة عشرة من عمرها حول السلام، وقد أبدت فرحها بأن تسأل حول هذا الموضوع، وأشارت إلى أنها تملك أفكاراً كثيرة حول الحرب والسلام، وحل النزاعات لكن أحداً لم يسألها.

واستعرض الكاتبان هاكفورت وهاغلوند أفكار السلام لدى الأطفال بالمجتمع الهولندي والسويدي من خلال دراسة أجرياها في ذات النطاق الجغرافي باستخدام المقابلات، ثم تحليل استجابات الأطفال والمراهقين التي حملت في طياتها طبيعة المجتمعين الهولندي والسويدي من حيث ميلهما إلى السلام والحرب، وما وراءه من إرث تاريخي للحرب العالمية الثانية، وحجم مشاركتهما فيها. واتسم تحليل الكاتبان لاستجابات الأطفال والمراهقين بالعمق حين تحدثا عن البعد النمائي في تفكير الأطفال الذي يتدرج من حيث مستوى التعقيد، فاستجابات الأطفال في عمر سبعة سنوات حول مفهوم السلام كانت تدور حول انعدام الحرب والنزاعات، وهي فكرة بسيطة عامة، ويطلق علماء نفس السلام على هذا النوع من السلام مصطلح (السلام السلبي) وذلك مقابل مصطلح (السلام الايجابي) الذي يشمل شيوع ثقافة السلام، وما تشمله من العناصر الراعية للسلام المستدام، مثل المساواة والعدالة الاجتماعية، وإتاحة الموارد للجميع وغيرها.

وقد تضمنت استجابات الأطفال الأكبر سنا والمراهقين أفكار السلام الإيجابي، وذلك ينسجم بدرجة عالية مع ما تراكم من معارف نفسية حول تطور التفكير عند الأطفال من المحسوس إلى المجرد، حسب مصفوفة نمو العقل والمعرفة عند الأطفال كما قدمها جان بياجيه. ثم يشير هاكفورت وهاغلوند إلى ما يحتمل

من تنوع في الأفكار حول الحرب والسلام، مع تنوع تجارب الأطفال في مختلف مناطق العالم، وضربا مثلاً بليبيريا ويوغندا والسلفادور حيث يتقلد الأطفال مسؤولية حمل السلاح، ومواجهة الاعداء ولو أنهم سئلوا حول الحرب والسلام لما انفصلت أفكارهم عن واقعهم.

يمثل هذا الجزء من الكتاب مثالاً واضحاً حول التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع في صياغة البنية النفسية للفرد وصناعة الأحداث الاجتماعية، فالطفل الذي استثارت البيئة عقله ودفعته ليفكر في الحرب والسلام قد يكون اللاعب الأساسي غدا في الصراعات القاتلة او مفاوضات السلام.

مع توفر إرث زاخر من المعرفة النفسية التي تتسم بشيءٍ من العمق، خاصة في علم النفس الاجتماعي الذي نسج خيوط الكتاب، ليس هنالك ذكر للتجارب الشهيرة التي ساعدت على فهم بعض الظواهر الاجتماعية مثل تجارب سولمون آش حول المسايرة في المواقف الاجتماعية أو تجارب ميلغرام حول الطاعة، وهي بلا شك عمليات اجتماعية مؤثرة في مواقف العنف وقرارات الحرب والسلام. ورغم التحليل مترامي الأطراف للعنف بأنواعه المختلفة إلا أن هناك ابتعاداً ملحوظاً للحديث حول العدوان باعتباره ظاهرة نفسية مرتبطة بالطبيعة الإنسانية اهتم بها علماء النفس كثيراً، ولم يحسم فيها الخلاف الجوهري حول ما إذا كان العدوان عند الإنسان غريزة في طبعه؟ أم أنه مكتسب متعلم؟ وما يقف وراء هذه الجدلية من خلفية بايولوجية.

كذلك لم يتم تناول سايكولوجيا الشخصية بما تتضمنه من مكونات عقلية ووجدانية وسلوكية مرتبطة بمواقف العنف على تراتب مستوياتها، وهي بلا شك وحدة من وحدات العنف والصراع وداينامايات الحروب الكبرى. وقد عرفها علماء النفس في أوجز وربما أدق تعريف بأنها : "نظام لإدارة الذات. ربما طبيعة الكتاب تميل إلى التأسيس للجانب التنفيذي في تحقيق السلام ومواجهة مآلات العنف والصراع والحروب دون الخوض في الأسباب، والتطرق فقط إلى جذور مشكلة العنف بما يحقق فهما وتفسيرا إجرائيا معقولا. وقد أدى الكتاب هذه المهمة بجدارة عالية، رغم التقصير الملحوظ (انظر سوفلا، 2003م Suffla) في إيراد منطقة مهمة من مناطق الصراع في العالم هي منطقة الشرق الأوسط، التي يؤرق سلامها القضية الفلسطينية، وما يصحبها من صراع عنيف ومستمر لعقود من الزمان، إذ لم يفرد لها الكتاب الحيز الذي تستحق كما فعل في تناوله لأصناف العنف مستشهدا بمناطق جغرافية على امتداد الكرة الأرضية.

تم تأليف الكتاب من قبل سبعة وأربعين كاتباً، من مختلف أنحاء العالم من أستراليا، ومن جنوب إفريقيا، وعدد من دول أوروبا، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ثلاثة من هؤلاء المؤلفين هم محررو الكتاب. وثراء التجارب الذي تميز به محررو الكتاب يضفي على الكتاب قيمة علمية عالية، إذ جمعوا بين التجارب الأكاديمية في مجال التدريس الجامعي، والبحث في جامعات أمريكية رصينة مثل: جامعة أوهايو،

وجامعة ميتشجان. والتجارب العملية في مجال علم نفس السلام مثل المشاركة في مفاوضات حل النزاعات، فبعضهم يعمل وسيطاً في فرق حل النزاعات، كما أن ثلاثتهم قد رأس من قبل الجمعيات المهنية التي تعمل في خدمة المجتمع، وخدمة مجال علم نفس السلام مثل (قسم علم نفس السلام في الجمعية النفسية الامريكية)، وجمعية (علماء النفس والمسؤولية الاجتماعية). وثلاثتهم أيضاً يعملون في هيئة تحرير مجلة السلام والنزاعات التي تصدر عن الجمعية النفسية الأمريكية، كذلك الأمر بالنسبة لبقية مؤلفي الكتاب، فمنهم من قدم خدماته النفسية الاجتماعية حسب تخصصه في مناطق الحروب والنزاعات، مثل حروب البلقان والنزاعات الداخلية في عدد من الدول الإفريقية وجنوب شرق آسيا، بالإضافة إلى النشر والتأليف العلمي، وقد تميز البروفسور جون غالتونغ JOHAN GALTUNG بأنه شارك في تأليف خمسة وثمانين كتاباً، ودرس قضايا السلام في خمسين بلدا، وشارك في حل أربعين نزاعاً حول العالم.

في خاتمة الكتاب يحاول المحررون إرساء أطروحة الكتاب في ذهن القارئ من خلال وصفها بأنها (نموذج رباعي) لفهم قضايا العنف والنزاعات والسلام، حيث أشاروا إلى أهمية التمييز بين العنف المباشر وغير المباشر، وصناعة السلام وبناء السلام باعتبارها مفاهيم، مع التأكيد على التداخل بينها باعتبارها مشاهد، وأحداث على مسرح الواقع.

كذلك قدم المحررون في هذا الفصل تصوراً ثنائياً ذا أبعاد متعددة للوسائل التي من خلالها يلعب علماء النفس أدوارهم في بناء ونشر ثقافة السلام، من هذه الوسائل، اتخاذ الإجراءات الاستباقية جنباً إلى جنب مع إجراءات ردود الفعل. ويشير المحررون هنا إلى أن علم نفس السلام ظهر وتطور باعتباره رد فعل للحرب الباردة التي سادت في بداية الثمانينات بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، مع بدايات متعثرة في الحربين العالميتين الأولى والثانية. كذلك من ضمن الوسائل الثنائية المقترحة، تحليل الوقائع مقابل المشاركة النشطة من قبل علماء النفس في الأنظمة الاجتماعية والسياسية التي تمكن من تحقيق العدالة الاجتماعية ومكافحة الظلم.

ويؤكد المحررون هنا أن المشاركة النشطة من قبل علماء النفس مسؤولية مهنية أخلاقية، وأن المواقف المحايدة غير مجدية، ومن فوائد المشاركة النشطة، تحقيق الإنتاج المعرفي النافع في مجال علم نفس السلام. ومن الوسائل الثنائية أيضاً، سلمية الغايات مقابل سلمية الوسائل. ويشير المحررون هنا إلى اختلاف علماء نفس السلام حول ما إذا كان استخدام القوة وسيلةً لتحقيق السلام قرارا سليما، وما إذا كانت الوسائل غير العنيفة تجدي في كل الأحوال. ثم يؤكد المحررون مرة أخرى على أن من أهم العناصر في بناء ثقافة السلام، تخفيض الفقر والتوزيع العادل للموارد المتاحة والاعتناء بإشباع احتياجات الفرد. مع الإشارة إلى قضية مهمة جدا لم يتم تناولها في متن الكتاب، هي قضية الأمن البيئي، فقد يتسبب التلوث البيئي مثلا،

الناجم عن سوء استخدام الموارد، في اشتعال الصراعات أو توتر العلاقات بين الدول. ويختتم الكتاب باستفهام تقريري، هل يوجد ما هو أهم من بناء السلام؟.

يلاحظ أن هذا الكتاب متفرد بدرجة عالية من ناحية تكامله، واتساع أفقه وانتظام أفكاره وتسلسلها وترابطها وسلاسة أسلوبه، وذلك مقارنة بكتب أخرى في المجال نفسه، وبعضها لكتاب وباحثين بخبرات علمية عالية مثل كتاب (علم نفس السلام : مقدمة شاملة) للبروفسور هيربرت بلومبيرج، وزميليه بول هير وأنا كوستين، وقد حوى كتابهم ستة عشر فصلا في ثلاثمئة وخمس وأربعين صفحة، أفردوا فيها مساحات لموضوعات ربما لم يتناولها كريستي وزملاؤه، لكنهم أشاروا إلى افتقار كتابهم إليها، مثل موضوع الإرهاب، والجانب اللغوي والتواصل في مجال السلام.

يمكن القول بأن الكتاب نجح بدرجة عالية في بناء أساس معرفي متين يستهدي به المتخصصون والباحثون، وكل المهتمين بقضايا العنف والسلام. فقد اعتنى بالمشاهد والأحداث الواقعية، وبنى عليها المفاهيم العلمية حين سرد التجارب الفردية والجماعية، كما أنه استطاع أن يضع بعض القيم الدينية مثل التسامح والصفح في قالب علمي، حين تناول دورها في بناء الثقة، وإعادة البناء في المجتمعات التي مزقتها الحروب. كما تدرج الكتاب في رسم صورة العنف حين بدأ في الفصل الأول بالحديث عن أصغر وحدات العنف، وهو العنف بين الأزواج؛ ليصل في الطرف الآخر إلى حوادث القتل الجماعي، والتطهير العرقي والحروب الكبرى.

وأكد الكتاب على أهمية مكافحة الظلم الاجتماعي، وتحقيق العدالة الاجتماعية من خلال الاعتناء بالفرد، وإشباع احتياجاته جنبا إلى جنب مع إتاحة الاستفادة من الموارد من قبل المجموعات والمؤسسات بمختلف أنواعها. كما رسم الكتاب في خاتمته مسارات واضحة لدور علماء نفس السلام في غرس ثقافة السلام ونشرها، وتحقيق المنفعة من معارفهم.

المراجع

- Blumberg, H. H., Hare, A. P., & Costin, A. (2006). *Peace psychology: A comprehensive introduction*. Cambridge University Press.

  https://doi.org/10.1017/CBO9780511812682.

- Suffla, S. (2002). Book Review: Peace, Conflict and Violence: Peace Psychology for the 21st Century. African Safety Promotion: A Journal of Injury and Violence Prevention, Vol. 1 No. 2, pp 48-51.